

شهادة د/ رحمة بنت مالك بن نبي

في ندوة: مالك بن نبي مفكر شاهد ومشروع متجدد

أعدها للنشر د.محمد بنوهم

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على سيدنا وعلى آله وصحبه أجمعين.

بداية أود أن أتقدم بالشكر الجزيل لجمعية النبراس على هذه الدعوة، كما أتقدم بالشكر للأساتذة المشاركين وللحضور الكرام ولكل من ساهم في قيام هذه الندوة حول فكر مالك بن نبي بمناسبة المئوية 1905 - 2005. كنت أود أن أكون اليوم بينكم في المغرب، ولكن شاعت الأقدار وشاعت الظروف أن أعذر عن الحضور، وذلك لأسباب شخصية من أهمها الحالة الصحية لوالدتي شفاها الله فاعتذرت.

كم كنت أتمنى أن أحضر هذه الندوة شخصيا لاتصالي بموضوع هذه الندوة فكريا وعاطفيا ولكونها تقام في المغرب وتحديدًا في مدينة وجدة. وقد علمت الكثير عن أهل المغرب وعن كرمهم وحسن ضيافتهم وتمنيت أن أكون هناك بينهم ولكن ستتكرر هذه اللقاءات إن شاء الله وستتاح لنا الفرصة لزيارة المغرب مرة أخرى والالتقاء بإخواننا هناك.

حينما تلقيت الدعوة منذ عدة أشهر تذكرت في حينها والدي رحمة الله عليه حين كان يتلقى مثل هذه الدعوة من أجل المشاركة في محاضرة أو ندوة وكان ينشر صدره لها. كان يحاول أن ينتهز أي فرصة تتاح له من أجل توعية الشباب المسلم بإمكانية صياغة خطاب إسلامي إنساني يمكن أن يتواصل معه المسلم وغير المسلم من خلال فهم

اجتماعي وإنساني للإسلام، مما يؤهل ذلك الخطاب لحث المسلم على القيام بدوره اتجاه ذاته واتجاه الآخر أي بذلك يكون مصداقا لقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس).

إن والدي رحمة الله عليه لم يكن ممن يحب الحديث عن شخصه وعن حياته. وكان بعض الطلاب يداومون على دروسه، وكانت له لقاءات أسبوعية في بيتنا، حيث كان يخصص يوم السبت للطلاب الذين يتقنون اللغة الفرنسية ويوم الأحد للطلاب الذين يتقنون أو يفضلون اللغة العربية- فكان بعض الطلاب يحاولون استدراجه في الحديث عن نفسه، فكان يرفض ذلك ويتملص من ذلك ولكن نحن نعلم أيضا أنه كتب وترك مذكرات أصدرها تحت عنوان مذكرات شاهد القرن، فقد يستشكل البعض أنه كيف يتعاش الأمر أن يكون لا يحب أن يتحدث عن ذاته وشخصه وأن يترك مذكرات ؟ ولكن إذا ما قرأ الانسان او ما قرأ القارئ كتاب شاهد القرن فإنه سيدرك تماما أن تلك القصة أو تلك المذكرات ليس لها بعد فردي وإنما بعدها بعد اجتماعي أكثر مما هو فردي، بمعنى أنه من خلال تلك المذكرات يرسم معالم مأساة شعب بأكمله، أي الشعب الجزائري تحت وطأة الاستعمار في تلك الحقبة. وكان والدي رحمة الله عليه يرصد أيضا من خلال تلك المذكرات الأفكار التي كان يحملها المحيط الجزائري والفرد الجزائري، مما جعله قابلا للاستعمار. إن القضية ذات بعد اجتماعي أكثر من كونها ذات بعد شخصي.

إن الحديث عن شخص مالك بن نبي أو عن حياته هو عبارة عن الحديث عن أفكاره. فهو لم يكن ممن يجزئ بين الفكر والحياة، بل حتى أنني أذكر أن أحد طلابه الذين كانوا يعاشرونه حين كان والدي رحمة الله عليه يسكن في القاهرة وأنا هنا أذكر الدكتور الأستاذ محمد فنيش سألني في إحدى المكالمات الهاتفية: هل تغير مالك بن نبي بعدما تزوج لأنه كان في تلك الحقبة في القاهرة لم يكن بعد متزوجا لم يكن بعد أنجب الأطفال فقال لي هل تغير بعد أن تزوج وأنجب الأطفال. هل تغيرت حياته؟ هل تغير نمط حياته أم بقي لا يزال يفيق وهاجسه العالم الاسلامي وكيفية النهضة بهذا العالم وينام ويبقى هاجسه العالم الاسلامي؟ إنه لم يتغير. فمالك بن نبي عاش حياته من خلال فكره،

فلا يمكن التجزئة بين الحديث عن شخص مالك بن نبي وعن فكر مالك بن نبي. وهذا يوضح أن الحديث عن شخصه في الواقع هو الحديث عن في الحقيقة عن فكره لأنه كان يعيش دائما يردد من خلال الطلبة الذين كانوا يدرسون عنده في المرحلة الأخيرة من حياته، إنه كان يعيش أفكارا قبل أن يلقي بها إلى الآخر أو قبل أن يكتبها في الورق كان يعيشها ويطلبها و يمارسها شخصيا في حياته ثم يدلي بها إلى الآخر.

فاليوم وقد مضت ثلاثون سنة أو ما يزيد عن وفاته ونحن نتذكره ربما بسبب، كما يقول البعض بسبب المأوية كما ذكرت في الكلمات الأولى من هذا اللقاء، ولكن أكثر من ذلك أظن وأنا على يقين أن هناك أسبابا أخرى موضوعية تاريخية تجعلنا اليوم نتذكر مالك بن نبي ونتدارس أفكاره ونحاول أن نحللها ونحاول أن ننظر إلى إمكانية استخلاص رؤية متكاملة أو منظومة فكرية متكاملة للبعث الحضاري للأمة الإسلامية.

فمالك بن نبي حين نتذكره اليوم كما قلت لأسباب تاريخية ربما نذكر بعض هذه الأسباب و ربما بعض الاخوة و الأخوات المساهمين في هذه الندوة يذكرون أسبابا أخرى تجعلنا اليوم نبحت أو نتدارس كما قلت هذه المنظومة الفكرية، فمن هذه الأسباب أسرد على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر إخفاق البدائل التي طرحت في الساحة الاسلامية من مثل الفكر القومي والفكر العلماني و الفكر الشيوعي وما إلى ذلك، وكل تلك الاديولوجيات في تلك المرحلة أي في الثلث الأخير من القرن العشرين وكان مالك بن نبي قد كتب أو ألقى محاضرة في دمشق في سنة 1972 تحدث فيها عن دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين لأنه قال في تلك المحاضرة أن تلك المرحلة ستعرف تغيرات وقد عشناها نحن، فالإخفاق أو الأسباب التي أريد أن أذكر والتي جعلتنا ربما نتذكر مالك بن نبي و نبحت في قراءة جديدة لفكر مالك بن نبي هو إخفاق تلك البدائل وذلك الطرح. و كان مالك بن نبي من خلال كتاباته كان قد أُنذر وأعلن إفلاس تلك الاديولوجيات التي تحمل تناقضا يجعلها غير منسجمة مع الواقع الاجتماعي والثقافي في المجتمع الاسلامي وفي الساحة الاسلامية العربية أو غير العربية فكان فشلها حتميا.

فكان مالك بن نبي قد رصد تلك الحقيقة قبل أن تقع في الواقع وأطلق على تلك الأفكار مصطلح الأفكار المميتة أو الأفكار القاتلة، وهنا ربما يتبادر سؤال الى الأذهان عن الخصوصيات التي جعلت مالك بن نبي يتمكن من رصد بعض الأمور ومآلاتها في المستقبل- في اعتقادي أن ما مكنه أو الخصوصيات التي مكنته أنه كان مبدعا : بمعنى أنه كان يستطيع أن يرى الأمور العادية برؤية جديدة. أو الأمور المحيطة التي يراها الناس الآخرون ولكن يراها برؤية خاصة به ورؤية جديدة.

ونعتبر مالك بن نبي مبدعا ولكن حين أقول مبدعا أقول إنه إذا ما لخصنا الابداع في عدة أمور نقول:

إن مالك بن نبي كان استوفى شروط الإبداع التي نلخصها في حرية العقل وحرية الارادة والملكة التي كان يكتسبها من خلال قراءته العديدة والعميقة لتطور التاريخ ولتتبعه للحضارات في بدايتها حتى أفولها، وحين أتحدث عن حرية العقل وعلاقة ذلك بالابداع فالقصد من هاته الحرية هو تلك الحرية التي لا يمتلكها إلا من اتصل اتصالا وثيقا مع الله سبحانه وتعالى، فذلك الاتصال هو الذي يمكن الفرد من التخلص من الخضوع للهوى ومن الفكر النمطي الذي كان في تلك الحقبة. وحسب ما أذكر وأنا طفلة كان رحمة الله عليه من أولئك الذين يقومون الليل صلاة و تضرعا الى الله سبحانه وتعالى ويناجيه، فكان ذا صلة وثيقة بالله سبحانه وتعالى وأورثته صفاء روحيا وضبطا للنفس وعقلا مميزا جعله قادرا على ربط الأحداث بالأسباب الحقيقية مهما كانت مستبعدة في الظاهر، والإبداع كما نعلم هو ضرورة لكل المجتمعات فاذا ما فقد المجتمع الابداع يفقد الكثير ويفقد القدرة على المجابهة والتحديات، والأمور التي تطرأ على المجتمع وتواجهه يعني أن المجتمع اذا ما فقد الابداع يفقد القدرة على التجاوب مع المستجدات، واليوم المجتمعات هي أحوج ما تكون إلى الابداع ومن ثم إلى صلة مع الله سبحانه وتعالى حتى تتمكن فعلا من حرية العقل والإبداع، وأذكر أنه قال قبيل وفاته إن فكره سوف يعود بعد ثلاثين سنة، فقد كان يدرك أن فاعلية الأفكار مرتبطة بالمحيط الذي تولد فيه وتنتج فيه، وقد ذكر ذلك في كتبه

حين أعطى مثالا عن الدورة الدموية وقال إنه تم اكتشافها في القرن الثاني عشر من قبل طبيب عربي ولم يتم توظيفها كفكرة فاعلة إلا بعد أربعة قرون على يد طبيب بريطاني، فقد كان يدرك حين قال : إن فكره سوف يعود بعد هاته الفترة يعني بعد ثلاثين سنة كان يدرك أن التاريخ قد عرف من قبل تأجيلا لتفعيل الأفكار وأن أفكاره ستفعل في يوم ما وها نحن اليوم في هذه الندوة وهي عبارة عن تأكيد لهاته الكلمات التي كان قد أدلى بها مالك بن نبي قبيل وفاته، وهنا أحب أن أشير أننا كما قلت لم نتذكره عبثا بل تذكرناه لأنه قد حان الوقت للتذكر: يعرف عن فيكتور هوغو أنه قال قد تهزم جيوش ولكن لا تهزم فكرة، وقد حان وقتها، وقت فكر مالك بن نبي ربما قد حان، فقد ينسى الإنسان أو ينسى المجتمع أفكارا صدفية أو عبثا ولكن لا يتذكرها عبثا، واليوم أحب أن أشير أن هناك منذ بضعة أيام في فرنسا وتحديدًا في باريس افتتحت مدرسة جزائرية تحت اسم مالك بن نبي، و قد يفسر البعض هذا الحدث على أنه انتصار لفكر مالك بن نبي وهو ذلك الشخص الذي عاش كمستعمر - بفتح الميم - حين كان طالبا في فرنسا وكان يحاول أن يشعل شمعة صغيرة يضئ بها من حوله ويبدد الظلمة التي كانت تحيط بالمجتمع الجزائري، لكن فرنسا ضيقت عليه وحالت بينه وبين التدريس الذي كان حاول أن يقوم به في الجالية الجزائرية في فرنسا، ومن الطبيعي إن رأينا تلك المحاولة وما لقيته (من تعنت السلطات الاستعمارية) ثم سمعنا أخيرا أن مدرسة بأكملها تفتح باسم مالك بن نبي، فلا عجب أن ذلك يفسر كانتصار لفكر أو لشخص مالك بن نبي، ولكن إذا ما أردنا أن نفسر هذا الحدث وفق رؤية مالك بن نبي أي وفق رؤية الإسلام كدور إنساني أو اجتماعي فإننا نرى أن افتتاح هذه المدرسة هو عبارة عن رمز لعصر الحضارة الانسانية التي قد كان رصد معالمها وجعلها خطوة في ذلك الاتجاه، فمنذ بداية إنتاجه الفكري يحدد الوجه العالمي أو الوجه الانساني للحضارة فقد كتب في كتاباته أنه لا بد على المجتمع الاسلامي أن ينخرط انخرطا فعالا وإيجابيا مع التطور العالمي، كما أضاف أنه حتى يتم هذا الانخراط لا بد على العالم الاسلامي أن يعرف ذاته ثم يتعرف على العالم ويعرف هذا العالم على ذاته مع

القيام بعملية تقييم لما يحمل من قيم ولما يحمل العالم أيضا من قيم تشكل الارث الانساني. فمالك بن نبي كان يرى منذ بداية إنتاجه الفكري أن العالم يتجه نحو التكتل وأن على الاسلام أن يجد أويعد دوره الحقيقي ألا وهو الدور الاجتماعي الإنساني، فليست القضية كما كان يقول أن نقاط الحضارة الغربية التي تمثل إرثا إنسانيا هائلا وإنما القضية هي قضية تحديد وتنظيم هاته العلاقة مع تلك الحضارة، وفي اعتقادي إذا ما لجأنا الى تفسير افتتاح المدرسة وفق رؤية مالك بن نبي أن هاته المدرسة هي إعلان عن هذا الانخراط الحتمي الذي كان يتحدث عنه مالك بن نبي، واليوم نرى تناقضات كان عبر عنها مالك بن نبي بتخلف الضمير عن العلم ، فقد قال مالك بن نبي إن الاكتشافات العلمية والاقتصادية تتجه بالمجتمع الانساني نحو مجتمع إنساني عالمي وبالرغم من التناقضات والرواسب الثقافية التي ورثها العالم عن العصور الوسطى كفكرة الهيمنة والسيطرة، واليوم أصبحنا ندرك ربما أكثر مما كان يستطيع أن يوضح لنا مالك بن نبي قضية الاكتشافات العلمية والتقنية والاقتصادية التي تتجه بالانسانية نحو العولمة مثل الأنترنت والاتصالات والمواصلات والأسواق المشتركة وما إلى ذلك. فالיום أصبح الاتجاه العالمي الذي يطلق عليه مصطلح العولمة أصبح أكثر بروزا ومن هنا يتحتم على الشباب المسلم أن يرصد حقيقة هذا الاتجاه وأن يحدد آليات التغيير التي تمكنه من النهضة حتى يلتحق بركب الانسانية.

أعود وأذكر بما قلته قبل حين أن القضية هي قضية تحديد وتنظيم العلاقة مع الآخر، فعلى الشباب المسلم وعلينا كأولياء وأصحاب مسؤوليات أن نهىء الشباب وندريبهم على قضية تنظيم وتحديد هذه العلاقة مع الحضارة الغربية، فنحن نريد انفتاحا كما نقول دون ذوبان لأن هذا التفاعل كما قلنا عنه تفاعل دون ذوبان هو الذي سيمكن المسلم أن يقوم بدوره الذي قام به إلى الآن وهو دور المستهلك. فلا بد له من تحديد جديد في هذا الركب الحضاري الإنساني.

فنحن نأمل أن تكون هاته الندوة خطوة في تحديد طريق هاته الوجهة وفي تحديد وسائل التغيير وأكثر من ذلك، لأن تحديد الوجهة والغايات أو الوسائل لا تكفي بل لا بد من وجود إرادة التغيير لدى الشباب ولدى المجتمع بأكمله ولا بد أيضا من بعث روح إرادة التغيير في المجتمع، فربما الشباب اليوم بسبب الاخفاقات العديدة والمنتالية التي عرفها العالم الاسلامي، ربما وصل الى حالة الاستسلام إلى الواقع أو الى حالة الاستسلام باسم الواقعية المزيفة. فلا بد أن نبعث فيه روح إرادة التغيير ولن يكون ذلك ممكنا إلا إذا ما بعثنا فيه روح التفاؤل. فالتغيير ممكن والتغيير حاصل وقال مالك بن نبي في كتبه إن التغيير واقع لا بد منه فإن لم يأت من الداخل فسوف يفرض من الخارج. فلا بد أن نجعل هاته الكلمة شعارا لنا نفهمه ونعمل به وليس شعارا نردده فقط حتى نستطيع فعليا أن ننهض وحتى تصبح قضية النهضة هي الهاجس الذي يشغلنا. فقضية النهضة - ومالك بن نبي كان قد خصص كتابا كاملا تحدث فيه عن شروط النهضة - حسب ما قرأته من كتب مالك بن نبي وغيره هي عبارة عن تراكم لأعمال عادية من أناس عاديين يقومون بأعمال مثل الأم في بيتها و المزارع في مزرعته والصيدلي في صيدليته والطبيب في المستشفى والمدرس في المدرسة وغيره، أي هي عبارة عن هذه الأعمال العادية على شرط أن تكون هذه الأعمال ذات قيمة متجانسة مع باقي القيم الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمع. فإذا شعر كل فرد من المجتمع بهذه المسؤولية وحدد وقام بدوره فعندئذ نستطيع أن نقول إننا استوفينا شروط النهضة، وحينئذ ستصبح هاته النهضة حقيقة حتمية إن شاء الله.

أرجو أن أكون قد ركزت على النقطة الأساسية التي أردت أن أسلط الضوء عليها وهي إمكانية صياغة خطاب إسلامي إنساني اجتماعي يستطيع أن يتواصل معه المسلم وغير المسلم وذلك عن طريق قراءة جديدة للواقع و قراءة جديدة لما لدينا من نصوص. وكما قال الإمام مالك لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. ونأمل أن تكون هذه الندوة خطوة في اتجاه التوعية والعالمية الانسانية و في الاتجاه الطبيعي التاريخي.

بونة للبحوث والدراسات العددان : (4-5) (1426/1427 هـ-2005/2006 م)

وختاما نأمل أن تكون هذه المداخلة موضوعية قدر المستطاع فأنا كلي أمل أن لا أظلم مالك بن نبي اذا ما اتهمت بغير الموضوعية في الحديث عن شخصه أو فكره بسبب الرابطة العاطفية الطبيعية التي تربط الابنة بوالدها. وهنا أريد أنؤكد أن مالك بن نبي يبقى فكره فكرا لا بد من دراسته وتحليله كمنظومة فكرية وأن تتكرر هذه الندوات كثيرا حتى نوضب هذه الأفكار. ففكر مالك بن نبي هو حلقة في الفكر الانساني العالمي ويبقى مالك بن نبي أيضا كشخص مثالا يحتذى به. ففي المحنة الجزائرية أعني ما قبل الثورة وأثناءها أي ضمن حقبة الاستعمار تمكنت هذه الشخصية من الارتفاع فوق المحنة والأزمة التي يعانيتها الشعب الجزائري آنذاك و طرح فكرة حوار الحضارات تطبيقا لقوله عز وجل - (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) فالיום نأخذ مالك بن نبي فكرا وشخصا كمثال يحتذى به حتى نرتفع عن الأحداث والمحن التي يعيشها العالم الاسلامي اليوم ونرتفع بأفكارنا وأفعالنا الى مستوى أخلاقي إنساني فعال. فأرجو أن تكون هذه اللقاءات إن شاء الله متكررة وأرجو أن تكون المنفعة متكررة إن شاء الله.

وأشكر جمعية النبراس مرة أخرى على هاته الاستضافة والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.